



يستثير فيديو صورة والدة شهيد سورية، عبد الباسط الساروتو، تقبّله وتودّعه إلى الجنة، زوبعة من اللواعج التي تتّعب اللغة في البحث عن مفرداتٍ تعبرُ عنها. واللاعج في المعاجم حُرقة القلب من الحب. وسيرة هذا الشاب الذي غادر الحياة عن 27 عاماً مثقلةً بما يجعل حبه ليس شعوراً عاطفياً فحسب، وإنما حاجة يتسلّح بها كل فردٍ منا، لتسعدنا في مناؤه كلّ تعاسةٍ في العالم، في كلّ العالم.. تنطق صورة الجثمان المسجّي، وحواليه جمّعٌ من رفاق عبد الباسط ومن الشباب السوري النظيف، يحيطون بالأم المكلومة، بحزمةٍ من المعانٍ، تجعل التخلص من نظام الأسد في سورية ضرورةً من أجل حفاظ الجنس البشري على اسمه هذا جنساً بشرياً. تتمّلئ في الصورة، وفي بالك أن عبد الباسط الساروتو هو ابن خامس لهذه المرأة، يرتفق إلى الأعلى بفعل جرائم هذا النظام الذي تقصّد مرّات قتل هذا الثائر النبيل، صدّاح الثورة السورية وبلبلها عن حق، حاول مرّات وأخفق، أعلن عن آلاف الدولارات لمن يرشّده إليه. تُحدّق في الصورة، وفي بالك أن ثلاثة من إخوة المرأة، أخوال أولادها، قضوا أيضاً برصاص نظام القتل نفسه، وكذا اثنان من أحفادها، وزوجُها أيضاً. أي خنساء إذن، تلك التي شابه بعضُنا هذه الأم، الزوجة، الأخت، الجدة، بها. المخيّلات الفقيرة جعلتها كالخنساء، فيما مخيّلةٌ رحبةٌ كانت سترى هذه المرأة التي كانت تقول "للله ما أعطي ولله ما أخذ" جبروتاً لا مثال له، أرضًا لا تجفّ، وإن ينفع منها الدم كثيراً، وإن يساقط الدمع فيها كثيراً.

ربما يصيّب نجاحاً من يكتب، بحدّاقٍ وبناهٍ ضروريتين، عن عبد الباسط الساروتو من مدخل التعليق السياسي على لحظةٍ مستجدة، باللغة الصعوبة، تعبّر إليها سورية وثورة شعبها وخرائط مستقبلها، ولكن الحمولات الوجданية والعاطفية الباهظة في هذا الحدث المجلل بأرطالٍ من الأحساس المرّة لا تجعل كتابةً من هذا اللون ميسورة، سيما أن صور تشيع الساروتو، والأهازيج التي هتفها المحتشدون في وداعه، والموكب المهيّب الذي نقله إلى مدفنه، لا تترك لأيّ كلامٍ في السياسة موضعًا

جدّياً. ببساطةٍ، لأنّ حارس مرمى منتخب شباب سوريا لكرة القدم سابقاً، ومغني ثورة السوريين، وشهيدها الشجاع، الفارس، يغادر الدنيا بطلاً شعبياً، أمثلولةً استثنائية، لا يمنّ عليه أحد عندما يخلع عليه صفتَه أيقونة. ثمّة بساطةً شاسعةً في انتقاله من لاعب كرة قدم إلى ثائرٌ بالأغنية والتظاهر وبالبارودة. قال إنه لم يكن يهتم بالسياسة، ثم صرّته جرائم النظام ضد السوريين، في مدينته حمص وغيرها، يصبح من التأثرين، الساخطين الناقمين الغاضبين، الساعين إلى تحرير سوريا من الحاكمين القاتلين فيها. هذه هي القصة فحسب. ثم في سبع سنوات، صار الساروت يغني، ويتظاهر، ويقاتل.. ثم يُقتل.

كان صوت عبد الباسط الساروت احتاج إلى شيءٍ من الل肯ة البدوية، والبلحة العراقية، ليهُج بأغانياته القصيرة، المشحونة بحبِّ البلد، بسوريا جنةً، بالوطن "الحبيب". كتب زملاؤه كلمات أغانياته، ولحنوها، تبدو غير سورياً تماماً، وفيها تلك الرنّتان، البدوية والعراقية، وقد لا يكون زعمي هذا دقيقاً تماماً، الأهم أنها تضرب الخسيس المطلوب رحيله بالهجاء الذي يليق به، وتحتفي بحمص، وبالنصر والشهادة، وذلك كله بقاموسٍ متقدّفٍ، ومفرداتٍ لا تتقصد الشعرية، ولا الإيحاء، مما تنطق به عن السلاح وحمله "لأجل عيونك يا حمص" هو المراد منها. ولما جاءت آخر أغنيات الساروت (إنتاج تلفزيون سوريا، 2019) على ثوريِّ الجزائريين والسودانيين، وتنمّت لمصر خلاصاً من الطاغية فيها، فذلك يستقيم مع الجوهرِي في كفاح هذا البطل الشعبي، الحمصي الجولياني المُنبت، استهداف الظلم، والهجم بالعدالة.

باسل شحادة، وغياث مطر، وإبراهيم الفاشوش، وزران زيتونة، وسميرة الخليل، ورائد الفارس، وحميد الجنيد، وفدوى سليمان، وهي سكاف، وباسل الصفدي، وعمار جربوع، ونيراز سعيد، وعبد الباسط الساروت.. أسماءً لشجعان سوريين وسوريات وفلسطينيين، فنانين ومبدعين، ثوارٍ ومناضلين، أقمارٍ دلّ ضياؤها الباقي على أنّ الأمل في انتصار سوريا على نظام الفتاك والقتل غزير، وهذه وداعيات عبد الباسط، وقبلات والدته على جبينه، وأغانياته، تتعشّ هذا الأمل الذي لا يغيب.

المصادر:

العربي الجديد